لليهود الذي كان يسيطر على المواطن الروسي العادي ، بفعل سبب موضوعي ، هو كراهية الدور الربوي الذي كان يلعبه اليهود ، وانها لمسألة بالغة الدلالة ان تطالب احدى المظاهرات بحرق صكوك الرهن التي بحوزة اليهود ، اشارة من المتظاهرين الى ان عمليات الربا كانت تنتهي باستيلاء اليهود على الارض عند عجز الفلاح عن سداد القرض الذي يسلف عادة من المرابي اليهودي بارباح خيالية ، الامر الذي يوضح ان المسألة ليست مسألة بضعة افراد روس ، او بضعة مرابين يهود • وقد عرفت السلطات القيصرية كيف تستغل هذه الحقيقة لتصعيد مشاعر الكراهية ضد اليهود لاخفاء المشاكل الحقيقية في روسيا ، ولتوفير المبرر لضرب الاتجاهات الثورية تحت حجة ان محركيها هم من اليهود •• (٢٩) •

لقد حاولت الايديولوجية الصهيونية ، كما صاغها هرتزل توظيف هذا الوضع ، وذلك بان ، تقدم الاغراء الذي يدغدغ مصالح وعقلية من يريد الخروج •• الهجرة الى فلسطين، وهذا الخروج سيكون ارتقاء طبقيا ، وتحسين مركز •• بدلا من احتمال التحول الى بروليتاريا ، او الهجرة الى دولة اخرى •• مع ميزة هامة جدا هي ان المهاجر سيتحول الى ملاك بمجرد وصوله الى فلسطين وهذا بحد ذاته اغراء لا يمكن تجاهله • وبهذا اصبح ممكننا اختصار الفجوة بين الخرافة والحقيقة ، بعد ان اصبح التسليم بالخرافة يعني عملية (قبض) اكثر مما هي عملية (دفع) •• وبعد ان دمجت الخرافة بسند الملكية ••

ان خير معبر عن هذه المسألة ، الفكرة التي طرحها أحاد هعام في رده على سياسة وفلسفة العمل العبري عندما قال عام ١٩١٢ «باستطاعة اليهودي ان يكون مزارعا مجتهدا، صاحب بيت قروي ، يعيش على الفلاحة التي يتقنها ويغوص فيها ، ففي كل صباح يخرج الى حقله ، للاشراف على عماله ، الذين يحرثون او يزرعون ارضه ، الذين يغرسون او يركبون كرمته ، ولا يمتنع ايضا عن العمل بيديه مع عماله •• ان مستوطناتنا القروية في فلسطين حتى ولو اتسعت مع مرور الزمن لتصل نهاية حدود الامكانات ، ستبقى دائما مستوطنات « عليا » تابعة لاقلية متحضرة متطورة تستمد قوتها من عقلها ومالها ، بينما الجماهير القروية الفقيرة التي تستمد قوتها من عمل ايديها ، لن تكون لنا في ذلك الوقت •• (٣٠) » • ولذا فقد «كان كل مستوطن يعيل ثلاث عائلات عربية •• (٣١) » • وبكلمة اخرى فان كل مستوطن كان يستغل ثلاث عائلات عربية •• واصبح «عدد السكان العرب داخل بعض المستوطنات يفوق عدد السكان اليهود •• (٣٢) » • لماذا ؟• لانه «كان امام المستوطن اليهودي امكانيتان : الهبوط الى المستوى المعيشي لاهل البلاد العرب •• (٣٣) » • وهذا ما كان يمكن ان يحقق افضل منه في موطنه الاصلي لو اراد التحول الى بروليتاري او بان يتحول الى مستغل للعمل الرخيص ، وقد اختار المزارع الطريقة الثانية، فتعززت مزرعته ، وتحولت المستوطنات الى اقطاعيات تعتمد على استغلال العمل الرخيص كما هو الحال بالنسبة لاستغلال عمل السود في الولايات المتحدة •• (٣٤) » • وهو ما يتناسب وما وعدهم به هرتزل في كتابه دولة اليهود « بان الخروج سيكون في الوقت نفسه ارتقاء طبقيا ••» •

بفعل هذا الواقع الموضوعي ، اعيد تفصيل الايديولوجية على مقاس الواقع العملي ، واصبح العمل نوعين ، نوع يشترط الطهارة ، ونوع آخر لا يستدعيها ، فـ «قص اغصان